ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 07 العدد: 01(2022) ص 75-85

# التراث العربي الإسلامي وحماية الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية

# *The Arab Islamic heritage and the protection of the cultural privacy of Arab societies*

| سلت طاهر* | كريمة سالمي |
|---|---|
| جامعة تيزي وزو ( الجزائر) | جامعة تيزي وزو ( الجزائر) |
| taharselt@yahoo.fr | ayakarines@gmail.com |

**معلومات المقال**

**تاريخ الإرسال:**
20 ماي 2021

**تاريخ القبول:**
08 سبتمبر 2021

**الكلمات المفتاحية:**
- ✓ التراث العربي
- ✓ الخصوصية الثقافية
- ✓ الحضارة العربية الإسلامية

**الملخص:**

لعلّ من تداعيات التمدن على الحواضر العربية الإسلامية أنه منذ أن بزغت إرهاصات الحداثة، وحققت حركة التقدم التقني والعلمي والتكنولوجي ثورة كبيرة في أوروبا، والتراث العربي الإسلامي يعيش زعزعة في قوامه لاسيما بعد انتشار فكرة تخلف الماضي، وتجذر الفهم الخاطئ في العقول والقائم على أن مجاراة التطور الحياتي المشهود يقتضي تبني النماذج الحضارية الغربية وتقليدها، وفي هذا الإطار يجدر التساؤل على النحو الآتي: كيف يمكن إعادة قراءة التراث العربي الإسلامي، وما الذي يمكن أن تفضي إليه مساءلته النقدية؟ ما هي سبل تثمين هذا التراث العريق، وهل فيه من القوة ما يمكّنه من تحصين المجتمعات العربية من التماهي في ثقافات غيرها؟

***Article info***

*Received*
*20 May 2021*
*Accepted*
*08 September 2021*

**Keywords:**
- ✓ *Arab heritage*
- ✓ *Cultural particularities*
- ✓ *Arab-Islamic civilization*

***Abstract :***

*Perhaps one of the repercussions of urbanization on the Arab-Islamic civilizations is that since the harbingers of modernity emerged, and the movement of technical, scientific and technological progress achieved a great revolution in Europe, and the Arab-Islamic heritage is shaking its strength, especially after the spread of the idea of the backwardness of the past, and the rooted misconception in minds based on keeping pace with development The witnessed life requires the adoption and imitation of Western cultural models, and in this context it is worth asking as follows: How can the Arab and Islamic heritage be re-read, and what can its critical questioning lead to? What are the ways to value this ancient heritage, and is it of the strength that enables it to immunize Arab societies from identifying with other cultures?*

* المؤلف المرسل



Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

**مقدمـة:**

يزخر التراث بمكتنزات تعبر عن التفاعل الحضاري مع الموروث الثقافي للشعوب، ولكن هناك تراجع مشهود في مستوى التمسك بالتراث خاصة بعد اكتساح التكنولوجيا مختلف جوانب الحياة. ويظهر الحفاظ على التراث العربي الإسلامي جانباً من تشبث الأجيال الصاعدة بإرث أجدادها، وفي إطار تعاظم الخطر الذي يهدد الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية، وأمنه الفكري والعقائدي وتراثه الحضاري، بات من الضروري إعادة الاعتبار لتراثها العريق، وصيانته من تبعات العولمة ومخاطر بعض وسائل الاتصال المعاصرة.

ويعتبر التراث العربي «واحداً من كنوز الحضارات الإنسانية الشامخة، فهو تراث عريق ممتد الجذور، وحين بزغ فجر الإسلام على الجزيرة العربية، نمَّاه وكشفه للعالم؛ ولما امتدت فتوحاته، ودخلت فيه أمم كثيرة ذات حضارات قديمة، وعندما انخرطت هذه الأمم في الحضارة العربية الإسلامية، وهجرت لسانها القديم واتخذت اللسان العربي أداة فكر وبيان؛ أنتج هذا التزاوج أمة جمعت بين صنوف شتى من الثقافات والعلوم التي أثرت التراث الإنساني، وجاءت هذه العلوم مسطرة على لفائف ورق البردي وغيرها، ثم تطور العمل بها حتى باتت تُعرف بالمخطوطات التي صارت، فيما بعد علماً قائماً من أنفس العلوم يُدْرَس ويُدَرَّس»(قطاع الشؤون الثقافية ومعهد المخطوطات العربية،2014، ص05). وإلى يوم هذا فإنّ المخطوطات تكشف ذخائر من إنتاج الفكر العربي الإسلامي الذي أنتج تراثاً منفرداً تفخر به الأمة العربية الإسلامية أمام الأمم الأخرى نظراً للمعارف التي أسهمت بها في تقدم العلوم والبشرية، ولقد تناسى المتهافتون على الثقافة الوافدة إلى العالم الإسلامي أن حضارة أوروبا وخروجها من عصور الظلام كان يوم اتصلت بالحضارة العربية الإسلامية واستفادت من علومها وفنونها وتراثها، الأمر الذي ينمّ عن كونها حضارة فتحت الأبواب أمام الثقافات الأخرى واستفادت وأفادت غيرها.

## 1- التراث العربي والهوية الثقافية:

إنّ المحافظة على التراث بأشكاله وأنماطه وتجلياته المتعددة، مسؤولية ورسالة باعتبار أنّ التراث رصيد إنساني متراكم ومكوّن أساسي للهوية كما أنّه ثروة الأمة ورصيدها الذي لا ينضب ومصدر وجودها وهويتها، فالأمم تُعرَف بهوياتها التراثية. ويعدّ التراث كذلك مصدراً معرفيّاً وحضاريّاً يُنهل منه ويُبنى عليه، ولذلك كان التفريط فيه انسلاخاً عن الهوية وتنكراً للأصول، والتاريخ الفكري والثقافي والأدبي والعلمي للأمة هو أصل هويتها ومنه هو مصدر تميزها وديمومتها، فالتراث العربي الإسلامي الزاخر بالمعارف والعلوم والفنون يعتبر ثروة إنسانية حضارية أغنت المعرفة الإنسانية عبر العصور، وهو مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية التي تتشكل منها منظومة متكاملة من القيم والمثل وأنواع الإبداع الإنساني في شتى الحقول المعرفية، هذا ولا يتعارض التراث مع التحديث والتجديد في الأفكار والتصورات وفي الأساليب والنظم، كما أنه يشكل في مجموعه قاعدة راسخة للتغيير في الحياة نحو الأفضل والأسمى، وأن الهوية هي الحصانة الواقية ضد التلاشي والذوبان( التويجري، 2011م، ص31- ص32)، ولقد كان تواصل الأجيال من خلال التراث بجميع أشكاله، ضرورة من ضرورات المحافظة على الخصوصيات الثقافية والحضارية.

وعلاوة على ذلك فإن تاريخ الأمم يؤكد أن « لكل أمة عقل وتراث تصنع بهما مقومات حياتها، وارتباطها بالأمم الأخرى وهو اشتراك في السمات الإنسانية الجامعة... والتراث في أسبقية زمنية ونظرية على العقل لسبب بسيط وهو أن التراث كمجموعة من الأحكام والتصورات سبق الفرد في الزمن، إذ كان التراث ولم يكن الفرد بعد، وعندما يوجد الفرد في جغرافيا وإقليم معين، فإنه يكون ويستوعب عناصر التراث بترجمتها تبعاً لطبعه وقابليته،... التراث هو "الثقاف" الذي يتوقف عليه تقويم طبائع الأفراد وتوجيه تصوراتهم وسلوكياتهم، فيما يشكل العقل "الثقافة"، لأنه بناء على معطى، أي إعادة تشكيل لتراث كان موجوداً بحكم العراقة في التاريخ أو الرسوخ في الأزمنة والضمائر»(الزين، 2018، 274)


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ولكن، ومع الأسف، ما يعرضه واقع المجتمعات العربية ينمّ عن تراجعها في الاهتمام بتراثها العريق الذي يفترض أن تعتمده كسند نقدي في قراءة حاضرها ومعالجة ما يطرحه من إشكالات فكرية وثقافية.

## 2- التراث العربي الإسلامي وتداعيات هجره:

يتفق كثير من المهتمين بتاريخ المجتمعات العربية على أنه من بين أسباب تخلفها هجرها لتراثها وانشغال الحكام بالصراع على السلطة، وحاولت اللحاق بالمجتمعات الأوروبية عندما استفاقت من سباتها لكن كانت قد اضمحلت مقوماتها و تراكمت سبل تخلفها، وعلى عكس حالها كانت انطلاقة المجتمعات الأوروبية ونهضتها بناء على التراث، فحينما ظهرت الجامعات الحديثة في أوروبا منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، احتضنت تراث أممها فأقامت مكتبات ضخمة؛ ضمت كل ما خلفته الأجيال السابقة من آثار مخطوطة وظلت مكتبات الجامعات الأوروبية تؤدي تلك الرسالة حتى ظهرت المكتبات الوطنية، فانتقلت مسؤولية الحفاظ على تراث الأمة من المكتبات الجامعية إلى مكتبة واحدة تعتبر أم المكتبات في أي دولة من الدول وهي المكتبة الوطنية(الحلوجي، 2002، ص58- ص59).

ولقد ألقيت على عاتق تلك المكتبات مهمة تجميع تراث الأمم وحفظه وتيسيره للباحثين والدارسين، بل إن بعضها لم يقنع بمجرد الجمع والحفظ والصيانة، وإنما أضاف إلى ذلك مهمة نشر أمهات كتب هذا التراث نشراً علمياً دقيقاً،...، ثم ناءت المكتبة بهذا العبء فتخلت عنه لهيئات أخرى مسؤولة عن النشر واكتفت بأن تقوم بدور الحارس الأمين على التراث، وأن تضيف إلى ذلك التراث أهم ما أنتجه الفكر الأجنبي في مختلف مجالات المعرفة، وبمختلف لغات الأمم والشعوب خصوصاً الإنجليزية والفرنسية، باعتبارها أكثر اللغات الأوروبية انتشاراً في العالم، وأعظمهما تداولاً بين المثقفين(الحلوجي، 2002، ص58- ص59) ، وعلى خلاف ذلك ظل التراث في البلاد العربية ردحاً من الزمن مهمّشاً في مراكز البحث والبرامج التعليمية رغم ما يكتنزه من مخطوطات ومصادر الثقافة العربية وحضارتها، بل ويتخرج الطالب الثانوي أو الجامعي دون أن يمتلك ناصية اللغة العربية ومعرفة بمكوّنات حضارتها وما تتميز به عن الحضارات الأخرى، وهذا ناهيك عن عدم الاعتزاز بانتمائه الثقافي والحضاري.

إن النشاط التعليمي في مجال التاريخ والحضارة ينطوي- بالضرورة- على بعد تربوي، ولكنه يميل إلى أن يتفكك ويغيب من خلال الخطيئة المنهجية التي لا تكاد تمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بتراثه الحضاري باعتباره أقرب إلى مطامح الإنسان ومهماته الأساسية في هذا العالم، بل إننا قد نصل- في نهاية الأمر- إلى نتائج معاكسة تتمثل في رفض حشود الخريجين لتراثهم الحضاري وإنكاره، وإعلان التمرد عليه، والاندفاع بالمقابل في اتجاه إغراءات الحضارات الأخرى، وإغواء بريقها الظاهري الخادع، وبخاصة الحضارة الغربية، وبهذا يصير تدريس الحضارة الإسلامية سلاحاً نشهره ضد أنفسنا لتدمير الثقة بمقومات حضارتنا وقدرتها على الاستعادة والفاعلية في صميم العصر، وفي مشاركاتها المحتملة في صياغة المصير البشري، كما يؤكد العديد من المفكرين والباحثين المستشرقين الغربيين أنفسهم(خليل، د.ت، ص 144) ، والمنطق يقتضي تبصير الأجيال الناشئة بكنوز تراثها، وهو الأمر الذي من شأنه أن يلزم مراكز البحث والجامعات بعدم إغفال التراث فيما تصدره من مجلات وتنشره من أعمال، وبخاصة تلك التي تعنى بالعلوم العربية والإسلامية، ويستدعي الأمر أيضاً الانفتاح على مجلات الاستشراق المهتمة بتراثنا بحيث يتابع الأساتذة ما ينشر فيها، ويسهمون في تصحيح ما قد يقع من مغالطات وتجن بقصد أو غير قصد على تراثنا(الحلوجي، 2002، ص63- ص64).

إن راهن المجتمعات العربية لا يبعث على الأمل في ما يتعلق بمآل تراثها في ظل مختلف المتغيرات التي تعرفها والمستجدات في حياة الإنسان العربي، والتي تؤدي إلى صرف اهتمام النشء والشباب عن ثقافته وأصوله وعدم اعتناقه لتراثه، ويُضاف إلى ذلك حرص «أوروبا بمختلف الوسائل على تحطيم قيم الثقافة العربية واللغة العربية والدين والتراث في نفوس الشرقيين والمسلمين والعرب بمختلف الوسائل، وزعزعة العقائد


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وذلك لتدمير هذه القوة الروحية الضخمة التي تكونت لهم في الشرق وكانت عاملاً ضخماً في منحهم القوة على مقاومة كل استعمار ومواجهة كل ظلم، لقد أصبح احتقار الإسلام جزءا أساسياً من التفكير الأوروبي وإن هذا الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تخريبي غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وقد لا يعرف التاريخ البشري حضارة وفكراً وديناً هوجم بمثل ما هوجم به الفكر الإسلامي، فقد ظل الاستعمار طوال مائة عام يواصل حملة ضارية على هذا الفكر في محاولة لإثارة الشكوك حوله، وتمزيق مقوماته في شراسة وضراوة بالغين ولولا ما لهذا الفكر من جذور بعيدة المدى بالغة العمق ما استطاع أن يثبت في هذه المعركة الضارية»( الجندي، 1987، ص126) وجراء كل ذلك صار العالم العربي الإسلامي يعيش حالة من التيه الثقافي، إنْ جاز القول، فاقدا الوعي بمقوماته والقدرة على استشراف مستقبله، نتيجة هجره لتاريخه وتراثه الثقافي وتبنيه لقيم دخيلة على هويته، ولهذه الحالة خصائص وتداعيات منها:

1- **ضعف وانقطاع العلاقات المختلفة:** من قبيل الدين، والعادات والتقاليد، وشكل الحياة،...، التي كانت تربط المجتمع بالماضي والراهن.

2- **اغْتراب الذات المطرد يوماً بعد آخر:** أي غربة الشخصية عن كل خصائص الذات مثل التقاليد والمفاخر والطقوس،... إلخ.

3- **ظاهرة النفور من الذات:** بمعنى أن الإنسان لا يستمد الكثير من العزاء و الرضا والاكتفاء الذاتي من ألوان النشاط الذي يقوم به، ويفقد صلته بكل ما يتعلق بذاته الحقيقية مثل صلة القرابة وتقدم البلاد، وتقدمه العلمي،...، ويصبح مع الزمن مجموعة من الأدوار والسلع، ولا يتمكن من أن يكون نفسه إلاَّ في حالات نادرة.

4- **ظاهرة تقديس الأجنبي، أو تقديس الغير:** وهي نتيجة لظاهرة النفور من الذات، حيث يقوم المرء بالثناء على كل ما هو أجنبي، ونبذ كل ما هو وطني، وفي هذه المرحلة يكون معيار اختيار الشيء أو رفضه هو مقدار ارتباطه بالأجنبي.

5- **مسخ الشخصية:** الفرد هو صنيعة المجتمع، فحينما يكون قالب المجتمع في طور التغيير فمن الطبيعي أن ينعكس ذلك التغيير على الفرد؛ فتتماهى شخصيته وتتحول لأن الصفات التي منحها المجتمع للفرد هي الأخرى تتغير وتتحول ويصيبها الضعف والذبول لتواكب تغير شخصية المجتمع.

6- **التقليد، وبروز مُركّب النقص وآثاره المزدوج:** أي السعي المفرط لاتهام الذات وكتمان كل ما يملك الفرد ومحاولاته المستميتة للالتصاق بالآخر والانتساب إليه(رضائي، 2009، ص 275- ص276)، ومن ثم يسهل على الغالب المتفوق زرع فكرة تقبل الانتكاسة الحضارية لدى المغلوب المهزوز الشخصية ممّا يعبد الطريق أمام الاستعمار الفكري والثقافي.

### 3- إحياء التراث العربي الإسلامي:

عكف جمع من الباحثين على العناية بالتراث سعياً منهم إلى مواجهة المخاطر التي تتربص به وتهدد هوية الفرد الثقافية في المجتمع العربي، وتبنوا في ذلك مبدأ إحياء التراث والربط بين الماضي والحاضر انطلاقاً من أن النهضة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الموروث الفكري والحضاري والعودة إلى الجذور. ويعني هذا أن يظل الفكر العربي نابعاً من قيمه الأساسية مرتبطا بماضيه المجيد ناقلا لخصوصياته الاجتماعية والثقافية، وبات واضحاً أنه « إذا أردنا أن نكوّن فكرة عن أيّ مجتمع من حيث عاداته وتقاليده وقيمه الإنسانية والاجتماعية والثقافية، وحتى الاقتصادية منها فلابد من الاطلاع على آدابه وفنونه، وثقافته الشعبية وأمثاله وشعره وقصصه المأثورة وطرائفه ونوادره وحكمه»( الكرمي، 2005، ص 03)، .وبات واضحاً ويبدو بديهياً أن التخلي عن التراث بالنسبة للمجتمعات العربية هو التنازل عما يشكل كيانها الثقافي وفتح المجال واسعا للغزو الثقافي.

وليس إحياء التراث أمراً حديثاً، بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر وعلى صور شتى، من نشر، أو تفسير، أو تلخيص، أو نقد، أو تعليق، وهناك العديد من الكتب التي خلفها أصحابها، فقام النُّساخ والوراقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

واسع(هارون، 1988، ص32)، حيثُ إنه كانت صناعة الوراقة في الوطن العربي بمثابة المطابع الحديثة التي تملأ أمصار بلادنا في الوقت الحاضر، وكانت مهمة الوراقين موزعة بين النسخ والتصحيح والتجليد والتذهيب، وكل ما يمت إلى صناعة الكتب بصلة، هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً، أما الآخر فيتمثل في شرح ذلك التراث فكتاب سيبويه (ت180هـ) شرحه أو قام بخدمته أكثر من 55 عالماً منهم: السيرافي، الرماني، الزمخشري، ابن الحاجب، ...، وكتاب مقامات الحريري أبي محمد القاسم بنعلي(ت516هـ) شرحه محمد بن علي العراقي(ت561هـ)، وناصر بن عبد السيد المطرزى (ت610هـ)، وأبو البقاء العكبرى(616هـ)،...، وحماسة أبي تمام(ت231هـ) تناولها بالشرح أبو بكر الصولى، والمرزوقي، وابن جني، والآمدي، والتبريزى، وأبوهلال العسكري، وابن سيده،...إلخ، تلك بعض النماذج للمحاولات القديمة التي كانت تعمل على إحياء التراث(هارون، 1988، ص 33- 34).

أما إحياء التراث في العصر الحديث فقد اتخذ أشكالاً جديدة، إذ اتسم بالنشاط السريع الذي يتمثل في إنتاج المطابع الحديثة، فهي كانت عاملاً فعالاً في نشر التراث الفكري على نطاق أوسع وعلى صور شتى ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق، ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت إلى ما يشبه القمة في عصرنا الحاضر(هارون، 1988، ص34)، ولقد عرف إحياء التراث العربي انتعاشاً كبيراً مع تقدم البحث في تحقيق المخطوطات التراثية ونشرها، واشتغال الطلبة الباحثين بالتحقيق على مستوى رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، وتجدر الإشارة كذلك إلى جهود مراكز البحث في التراث، ولا يقتصر الأمر على التراث المادي وحسب، وإنما نال التراث غير المادي كذلك حظه من الصون والعناية.

ويقصد بكلمة الصون التدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافي غير المادي بما في ذلك تحديد هذا التراث وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه ونقله، لاسيما عن طريق التعليم النظامي، وإحياء مختلف جوانب هذا التراث، وبشأن صون التراث الثقافي غير المادي على الصعيد الوطني أكدت اتفاقية حماية التراث الثقافي العربي اللامادي في(المادة12) تحت عنوان "قوائم الحصر" على أن تقوم كل دولة بوضع قائمة أو أكثر لحصر التراث الثقافي غير المادي الموجود في أراضيها، ويجرى استيفاء هذه القوائم بانتظام(جاد، 2008، ص 23)، وكل ذلك حتى لا يضيع هذا التراث ويتلاشى وحتى يتم تبليغه للأجيال اللاحقة.

وإنه من الملاحظ أن إحياء التراث في عصرنا الحالي يلقى العناية من ناحيتين اثنتين فقط، هما الناحية الدينية والناحية الأدبية واللغوية، أمَّا النواحي العلمية أو الاجتماعية أو الفلسفية، أو الحضارية الصرفة، أو الفنون القديمة، من فنون الحرب، أو الصيد أو علم الحيل، والآلات الحربية، وآلات الرصد، والبيزرة، والبيطرة، وتدبير المدن والمنازل، والسياسة والصيدلة، والطبخ وعقود الأبنية، والفلاحة، والمرايا المحرقة، والموسيقى القديمة، والنبات والهندسة القديمة، وغيرها، فالمنشور منها معدوم أو لا يكاد يذكر(هارون، 1988، ص 92- 93).

ويرى "عابد الجابري" أن الاهتمام المعاصر بالتراث، وبهذا الشكل المتزايد، ليس نوعاً من تأزم الوعي العربي، خصوصاً بعد النكسات التي عاشها العرب، ولا عودة إلى الماضي، ولا هروباً من الحاضر والمستقبل، بل يرى في الرجوع إلى التراث في هذا الظرف بالذات نوعاً من شعور الذات العربية بضرورة إعادة بناء نفسها، وإن الفكر العربي استعاد تراثه منذ القرن الماضي، ولكنه استعاده بشكل بضاعة يواجه بها تحديات العصر، ويثبت بها ذاته ويكشف بها عن هويته، أما الآن وقد استعدنا التراث من خلال الدراسات الكثيرة المتنوعة، فلقد أصبحت الحاجة ماسة إلى توظيف هذا التراث في قضايانا المعاصرة وفي قضايانا المستقبلية(الجابري، 2003، ص18- 19)، ولعلّ هذا ما يمثل التحدّي الأكبر بالنسبة للقائمين على مجال الدراسات التراثية، أي استلهام القيم والعبر لإيجاد مخرج من وضعية العقم الفكري الذي تعرفه النخبة في المجتمعات العربية.

لم تعد مثل هذه المسائل حالياً بأيدي تلك المجتمعات، وهذا نتيجة الغزو الثقافي، ولا مناص لها من الاحتياط من مستحدثات هذا العصر التي تقع في تضاد واضح مع الماضي


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والتراث، ولعل خير ما يمكن أن يشكل حصانة ثقافية بالنسبة لها هو التمسك بأصالتها وتربية النشء على الاعتزاز بتراثه والإيمان بأنّ المحافظة عليه مسؤولية مقدسة، وهذا مع محاولة التكيف مع واقع فكري واجتماعي يتجدّد باستمرار، والانطلاق من التراث لتجديد الرؤى في ما يخص مستقبل الأجيال، ومن الأقوال المنصفة ذات الدلالة العميقة في هذا الصدد قول المستشرق الفرنسي "جاك بيرك" الذي يرى: أن مستقبل العرب يتمثل في إحياء الماضي، لأن المستقبل في كثير من الحالات هو: الماضي أو الحاضر الذي وقع إحياؤه وعيشه من جديد(التويجري، 2011، ص 15)، لكن هل وعي المجتمع العربي بعظمة تراثه أمر كاف لانتشاله من الوحل الذي خاض فيه لقرون طويلة؟.

## 4- الوعي بالخصوصية الثقافية العربية في ظل التحديات الراهنة:

إنّ التطور المذهل الذي يشهده القرن الواحد والعشرون على جميع الأصعدة يضع العالم العربي أمام تحدّيات كبرى، وتلح الضرورة على أولوية التكفل بالقضايا التي يعرضها الواقع الثقافي، إذ لا ينبئ راهنها باجتماع عوامل نهضتها، ويرى المهتمون ضرورة الإصرار على تعزيز أسباب وسبل حضور مجتمعاتنا في المعترك الحياتي الذي يعيشه العالم، معترك الصراع الذي يتحول باطراد إلى جبهة الصراع بين الثقافات، فوجودنا كمجتمعات عربية في التاريخ والجغرافيا مرهون في المقام الأول بوجودنا الثقافي، في الوقت الذي أصبحت المجتمعات الغربية تروج لثقافاتها وقيمها وأنماطها السلوكية المتناقضة مع ثقافاتنا المحلية، والتي باتت تهدد الخصوصيات الثقافية والحضارية لبلداننا وأوطاننا، وفرضت علينا عيش حالة تبعية ثقافية من خلال ما أفرزته العولمة والتكنولوجيا، فالعالم العربي واجه تحديات كبيرة تتطلب منه اتخاذ التدابير والإجراءات الصارمة والفعالة لمواجهة هذه الوضعية التي اخترقت المجال الثقافي له، والتي تقوم بتهديد خصوصيته الثقافية وكسر انتماءاته وأدت إلى مشكلة الوعي المستند إلى الهوية وكيف يمكن الحفاظ عليها علميا وتأكيدها(بولشعب، 2018، ص01)، وهذا مع ضرورة معالجة معاناته التي أفرزتها مجموعة من الأزمات والانكسارات المتراكمة عبر مساره التاريخي، وينبغي أن نقرّ كذلك بعمق أزمة الوطن العربي، ولن نختلف في ذلك مع من يعتبر أنّ محور أزمتنا الفكرية أن واقعنا الإسلامي يفتقد ذاتيته الثقافية وخصوصيته الحضارية، هذه الذاتية حددتها قيم عقدية وأخلاقية وعملية شكلت الأسس الفكرية لحضارة الإسلام، واستوعبها العقل المسلم عبر الأزمنة والقرون الخوالي، فكان له من الحصاد الحضاري ما كان، والنخب الفكرية في واقعنا الإسلامي لا يمكن أن تتوجه إلى ذلك الفعل الحضاري الذي أشرنا إليه إلاّ بقدر تمسكها بمرجعية عميقة الجذور مرتبطة بكيانها التاريخي وبالكيفية التي انطلق بها مؤسساً حضارة الوحي والحضارة، فالمجتمع الإسلامي المعاصر لا يمكن أن ينطلق إلى تأكيد ذاته من خلال مرجعية خارجية مستمدة من تاريخ مغاير، ومن فكر وافد، مع مرحلة استعمارية ولّت بأسلحتها وعتادها وبقيت استعماراً ثقافياً وعقلياً واقتصادياً، يفسره واقعنا المتردي الذي تنكّر لهويته التاريخية وحضارته، ومن ثم يغدو النهوض من خلال تأكيد الذات هو الخيار الحضاري الوحيد أمام كل البدائل الفكرية؛ التي يروج لها سَدَنةُ الغرب في واقعنا العربي المعاصر، ولقد أطلق المستشرقون على الإسهامات التي قدمها العقل المسلم لحضارة الغرب من خلال حركة الإسلام الحضارية القدرة الفطرية الموروثة على الهضم والتمثل الثقافي المتنوع، التي جعلت الفكر الإسلامي يختص بميزة الوحدة في التنوع، والتنوع مع الوحدة(الفضل وأخرون، 2008، ص 130).

ومهما يكن من أمر فإن سعي العالم العربي إلى بناء حاضره يتطلب العودة إلى أصول حضارته العربية الإسلامية للتأسيس عليها مشروع الإحياء والتجديد في أنظمة الفكر، وفي هذه الحال يكون بأمس الحاجة إلى منهج يسعى لأن يتعامل مع هذه الحضارة كشخصية أو تكوين مميز بدءاً وصيرورة ونمواً وانكماشاً وتدهوراً، فإذا تذكرنا أن حضارتنا هذه لم تتشكل من العدم، وأنها لم تلم شتاتها بطريقة ميكانيكية، من هذه الحضارة أو تلك، فتكون عالة عليها، وأنها إنما نشأت بتأثيرات إسلامية، ووفق شبكة شروط وقواعد محددة صاغها هذا الدين وأنها


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تكونت في رحم إسلامي وليس في أي رحم آخر، وأن بصمات كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على خلاياها ونبضها وجملتها العصبية، من الأمور التي لا يكاد ينكرها باحث جاد، إذا عرفنا هذا كله أدركنا كم تكون جنايتنا على طلبتنا بتقديم هذه الحضارة إليهم مزقاً وتفاريق، وبنوع من فك الارتباط الساذج، الذي يتعامل معها كما لو لم يكن للتأثيرات الإسلامية في تكوينها أي حضور ملحوظ، اللهم إلاّ في خانة ما يسمى بالعلوم النقلية المعتقلة في المصنفات العتيقة والبعيدة عن تشكيل الحياة والنزول إلى المؤسسة والشارع والمدرسة والبيت(خليل، د.ت، ص 145- ص146)، وهذا من شأنه أن يكون حلقة تواصل الإنسان العربي مع حضارته "الضائعة" و"مصالحته" مع جذوره الأولى كي تتوطد علاقته بتراثه، فلا يكتفي بتمجيده وتعظيمه، بل أن يبني عليه تمثلاته للواقع وأن يدرجه في أسلوب حياته ليصير جزءا من هويته الثقافية، وهو السبيل إلى التخلص من عقدة استصغار الذات وتبجيل ما ينتجه النموذج الغربي.

ويتعين عليه في هذا المجال أن يعترف أولا بضعفه وعيوبه، ويقول قيصر مصطفى متحدّثا عن ذلك: «من عيوبنا المبالغة في كل شيء، نبالغ في الإحباط ونبالغ في تفوق الخصوم، ونبالغ في وصف جهالتنا وتخلفنا، ونبالغ في الحب كما نبالغ في الكره، ونبالغ في السخط والحزن والفرح...، ونبالغ في التعبد حتى يتحول إلى تزمت، وسلفية قاهرة وتكفير لمن يخالفنا، ...، ونحن بين واقعين اثنين إما عبادة الله وثقة بالأنبياء مباشرة وإمَّا أن نبقى على الأرض ننتظر الصعود إلى السماء التي نرتبط فيها بما بعد الموت وما فيها من جنة ونار كما فعل أبو العلاء المعري في رسالة الغفران وابن شُهَيد الأندلسي(382- 426هـ) في التوابع والزوابع، ودانتي صاحب الكوميديا الإلهية، وهنا لا وسطية» (مصطفى، 2018، ص 29- ص 30)

ويؤكّد بعد ذلك على ما ساهم به العرب في الحضارة الإنسانية فيقول: »ولنا أن نقول وببساطة وتواضع: نحن شعب من شعوب هذه الكرة الأرضية، تفاعلنا وأنتجنا، أخذنا وأعطينا وقدمنا، اعتدلنا وتطرفنا، ولم نكن هامشيين أو من النكرات، وشاركنا فيما أنتجته البشرية من الفكر والقيم الإنسانية، وانتصرنا وانهزمنا، وتخلفنا وتقدمنا مثل كل شعوب العالم، وهذه هي سنة الحياة، وعندما نتحدث عن الشعوب المختلفة فإنه لابد من الإشارة إلى ما بينها من تفاوت في كل شيء، إذ لا يمكن لهذه الشعوب أن تستوي أو تتساوى فيما بينها من صفات مشتركة، والمنطق يأبى إلاَّ التفاوت والتباين وأحياناً التناقض، والتشابه أيضاً، وتلك هي طبيعة الحياة وطبيعة النفس الإنسانية، فلا يمكن للإنسان أن يكون صورة متوافقة مع صورة أخيه بالتمام والكمال، والاختلاف ميزة الكون وميزة الإنسان،...، والنصر تقابله الهزيمة وهكذا، وقديماً قالوا وتحدثوا عن تقابل الأضداد في كل ما ذكرناه خير وشر، وهذه هي طبيعة الخلق والوجود»(مصطفى، 2018، ص29- ص30)، هذا ومن المعطيات الهامة التي يشير إليها الباحثون في قضايا الثقافة والفكر أنّ « أسوأ ما يمكن أن تتعرض له ثقافات الشعوب الآن هو تلك اللعبة التي تحمل اسم التنوير، وتخفي أغراضاً سياسية مشبوهة أو تصبح أدوات هدم وتخريب لمقومات الشعوب في الفكر والسلوك والعقائد، ولهذا يجب أن نكون على وعي بهذا كله، وألا نفرط بسهولة في مقوماتنا الفكرية والثقافية لأنها آخر ما بقي لنا، ويجب أيضاً أن نكون على وعي بجوانب اللعبة على مستواها السياسي والثقافي معاً»( يوسف، 2000، ص66)؛ خاصة وأن إحدى خصوصيات البلدان المتخلفة أو النامية هي أن روح هذه المجتمعات وبنيانها يقوم على الالتصاق بالتراث، لكنها حين تنزع نحو المدنية الحديثة تنقطع عن جذورها وتراثها، ويكون هذا الانقطاع مفاجئاً وغير طبيعي، أي عند اتصال هذه البلدان بالمجتمعات الحداثية، تحاول تقليد إطار وشكل النظام في تلك المجتمعات، من دون الولوج في تركيبتها وجوهرها، لذلك يبقى بنيان وطبيعة جذورها التراثية على حاله، بينما يكون اقتباس القشور والشكل الخارجي للحضارة الأوروبية أسهل وأسرع، وعليه يصبح المجتمع النامي شبيهاً بأوروبا في غضون سنوات قليلة لكن البُنى تأخذ وقتاً أطول للتكيف مع الشكل، لهذا تظهر إشكالية عدم تطابق البُنى مع الشكل، أو بعبارة أدق تبرز مسألة التعارض البُنيوي، وتكون هذه بداية نشوء التناقضات والأزمات


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

السياسية والنفسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية... إلخ(رضائي، 2009، ص277- ص278).

وعطفاً على ذلك يجدر القول إنّ من المخاطر التي تحدق بكيان المجتمعات العربية كما يرى البعض دخولها في دوامة الاغتراب الثقافي، وفيه تتغرب الأفكار والعقائد والقيم والثقافات؛ التي هي وليدة الخصائص العرقية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة، وتجسيد للمواصفات الأساسية للمجتمع أو العصر، ذلك المجتمع الفاقد لهذه الخصوصيات والشروط والبنى والمؤسسات الاجتماعية والتاريخية، يفقد خصوصيته وسمته الثقافية الذاتية عندما تفرض أو تستقطب– لأسباب ما- من قبل المجتمع أو الفئة أو الطبقة المهيمنة ثقافياً(رضائي، 2009، ص 282)، ممّا يحمله على التقليد والتبعية، وهو ما ينذر بتلاشي مقومه الأساسي ويؤدي إلى ضياع شخصيته، أي خصوصيته الثقافية، وليست الشعوب العربية بمنأى عن الانحلال في النموذج الثقافي الغربي، وفي هذا الصدد من المفيد أن نشير إلى أنّ الحضور الفكري الغربي في واقعنا الثقافي والترويج له على كافة المستويات أصبح ظاهرة لا تخفى على أي راصد ومتابع لحركة انتقال الأفكار بين المجتمعين الإسلامي والغربي؛ ومن ثم تفرض هذه الظاهرة تلك الثنائية وذلك الانشطار اللذين يشكلان نقطة الضعف الخطيرة في واقعنا الثقافي الراهن، تلك النقطة التي منها يمارس الاختراق تأثيره التخريبي، واللذين إنما يعكسان وضعية ثقافية لم تتم بعد إعادة بنائها، وضعية يتزامن فيها الأصيل والوافد والقديم والجديد، دون تفعيل لآليات الضبط والتوجيه للأطر النفسية والزمنية لحركة انتقال الأفكار بين المجتمعات(الفضل وآخرون، 2008، ص134)، وتلك هي إحدى المعضلات التي ترتبت عن هجر العرب لتراثهم وتغييبه في نظام حياتهم، والتي يكون من العسير حلها وقد غرقوا في التقليد الفكري.

ومن المؤكّد أنه حينما تنطلق الحركة الفكرية مما هو خارج عن إطارها الثقافي فلا يمكن أن تنتج إلا ثقافة تابعة، وإن المجتمع التابع- من خلال رموزه الفكرية والثقافية- يفقد استقلاليته في ميدان الفكر؛ أي قدرته على فهم نشاطه التاريخي والتحكم فيه، فالثقافة التابعة نتيجة للشقاق العميق الذي يميزها ويباعد بين عناصرها المعرفية والاعتقادية والرمزية، لا يمكن أن تنشئ وعياً فعالاً ومبدعاً؛ إنها تعيش في الانفعال وله، وتلهث وراء الحدث دون أن تمسك به، وتخلط بين الجزئي والكلي، وتخلق المشاكل والإشكاليات التي لا أساس لها في الواقع وتعين عليها، إن هذه الثقافة تحيا في الإطار الذي يتطور فيه وينمو الوعي المستلب أو بالأحرى الوعي كاستلاب محض، فهي وعي مكبل بإشكاليات لا تجد مصداقيتها إلاّ بنفي الواقع المحلي وتغييبه عن الذهن، ولذلك تبدو المفاهيم التي يستخدمها هذا الوعي عمومية وغير محددة، وأحكامه عشوائية ومتقلبة يتعامل بها من منطلق الرفض المطلق والخضوع المطلق، ويحولها إلى تمائم وأحراز؛ فهو بكل معنى الكلمة وعي مفكك وشقي(الفضل وآخرون، 2008، ص58- ص59)، ولذلك نعتقد أن الثبات أمام مغريات الحضارة الغربية وهيمنتها لن يتحقق للشعوب العربية ما لم تخلق ظروف الوعي بأهمية الاعتداد برموز حضارتها والتمعن في المقومات التي بنيت عليها، كما نرى ضرورة إعادة قراءتها لتاريخها وتشبثها بتراثها الذي يمثل الملاذ الوحيد للتحرّر من الاستلاب والاغتراب الثقافي.

**5- التراث العربي الإسلامي: المساءلة النقدية وإعادة إنتاجه:**

نرى في إعادة قراءة التراث العربي الإسلامي ومساءلته ما يكفل له الخروج من الضبابية التي تكتنفه، والتي تجعل عملية نقله إلى الأجيال أمراً عسيراً، وكل ما تدعو اليقظة إليه هو تحرير هذا التراث مما علق به من الشوائب، ويقوم هذا العمل على أساس أن فكرنا مزيج من الروح والمادة والدين والحياة، وأنه لا يفصل بينهما، وعلى ألا تتخذ ظروف دين أو فكر أو تراث آخر أداة لتطبيقها على فكرنا العربي الإسلامي، وإن نظرتنا للحياة تنبع من تاريخنا وفكرنا وتراثنا، وليس تراثنا روحياً فقط كما يحاول البعض أن يقول، وليس عقيماً، وإنما هو متطور وقادر على أن يمدنا بالحيوية والحركة، وإذا كان الفكر الغربي قد عنى بأساطيره وخرافاته فنحن أحق بأن نعنى بحقائقنا وقيمنا، وليس صحيحاً على الإطلاق أن


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الأخذ بأسباب الحضارة يتطلب هدم التراث(الجندي، 2018، ص186). وحري بالمثقفين العرب في هذا المجال إجراء «مراجعة نقدية صارمة للكثير من الأخطاء الكبرى التي ارتكبها المثقفون العرب وهم يتعاطون مع قضايا المعرفة والاجتماع، والتي دفع الوعي العربي- غالياً ثمنها – ويقع ضمن تلك المراجعة نقد الأوهام والأساطير التي صنعها أولئك المثقفون عن أنفسهم وعن قيمة بضاعتهم- وفي ظننا أن مثل هذا النقد الذي ينصرف إلى تفكيك البديهيات والمطلقات، وإلى تحليل مواطن العطب في الممارسة الفكرية، هو المدخل الأوْلَى بالولوج منه إلى مضمار كتابة ذلك التاريخ»( بلقزيز، 2010، ص82)، وهو ما نعتبره خطوة أساسية في مشروع إحياء التراث العربي الإسلامي وفهمه إنسانيا وحضاريا، وتحريره مما اكتنفه من تناقضات وأوهام جعلته حبيس النظرة الرجعية القاصرة.

ومن الأهمية بمكان التذكير في هذا السياق بأن متابعة النقد لما يظهر محققاً من كتب التراث كانت استراتيجية ذات أثر فعال في تقويم منهج النشر، وهنا نوه عبد السلام هارون بجهود الدكتورة عائشة عبد الرحمن، وحمد الجاسر، ومحمد عبد الغني حسن، وشوقي ضيف، وعبد العزيز مطر، ومصفى جواد، وغيرهم، في نقد طائفة كبيرة من منشورات التراث نقداً منهجياً وموضوعياً وتوجيهياً، اضمحل على أثره ذلك العبث الذي كان يمارسه بعض ناشري التراث(هارون، 1988، ص63)، وقناعتنا في ما يخص هذه المسألة أن أهم ما تستدعيه المعالجة النقدية للتراث العربي هو الرؤية الموضوعية والفحص الجاد لمضامين النصوص التراثية واكتناه عمقها مع التحلي بالصبر والمثابرة أمام ذلك الزاد الثقافي والحضاري الجدير بأن يُفتخر به. ويمكن أن نحيل في هذا الموضوع على تصور علي حرب لمآل الاستراتيجية النقدية على المستوى المجتمعي أو الثقافي، فهو يراه في أن تترجم إلى فاعلية تداولية بفكر تركيبي ومنطق تحويلي ووسط كوكبي وفضاء كوني، فالفكرة الخصبة والخلاقة ليست هي التي تصح بذاتها، وإنما هي قدرتها على خلق مجالها، بقدر ما هي طاقتها على التحويل والتغيير، فالأولى التحرر من أساطير الحقيقة الثابتة والهوية الصافية أو الحق المقدس والمعنى الامبريالي أو الأمر الجازم والحل الأقصى حتى لا نحصد المزيد من المساوئ والمآسي والكوارث، فساداً واستبداداً أو فقراً وخراباً أو إرهاباً ودماراً أن نخلق فضاء يناسبنا وننعم فيه بالحرية الثقافية(حرب، 2005، ص303- 304). ولهذا يكون من الأجدى في دراسة التراث الانطلاق من طبيعة مواده، ويفترض كما يرى سعيد المصري أن « تبدأ من مادة علمية محلية، وتستعين بمناهج علمية ومفاهيم محلية أيضاً، تكون مستمدة من طبيعة المادة العلمية دون نقل النظريات الاجتماعية الغربية التي نشأت في بيئات غربية وتم تطبيقها فيها، ونفذها باحثون غربيون مازالوا متأثرين بالإطار العام للثقافة الغربية»( المصري، 2012، ص 17)، ويعني هذا قراءة تلك المادة بالآليات التي تستوحي من التراث العربي الإسلامي نفسه، وليس ذلك بالأمر الهين لكن يقتضي الهدف الأسمى من الدراسات التراثية الغوص في التراث والتنقيب عن تلك الآليات.

ومن الناحية العملية ينبغي أن تسعى الجامعات إلى إدراج مادة توثيق النصوص ونشر الكتب ضمن المواد الدراسية في الأقسام التي تتصل الدراسة فيها بتراثنا المخطوط كأقسام اللغة العربية والتاريخ في كليات الآداب والتربية؛ وذلك حتى يتاح للخريجين حد أدنى من المعرفة الضرورية التي يحتاجون إليها عندما يبدؤون بحوثهم، بدلاً من أن يتركوا للاجتهاد والمحاولة والخطأ، فتتكرر جهود وتتبدد طاقات يفضل إنفاقها في إعداد بحوث الدراسات العليا(الحلوجي، 2002، ص 17)، كما يقع على عاتق الدول العربية توفير الدعم لمراكز البحث ودور الثقافة والهيئات والجمعيات المهتمة بالتراث وتشجيعها، والعمل على التنسيق فيما بينها في إطار عمل جماعي تكاملي، ليكون الانطلاق في إعادة بعث هذا التراث بأسلوب فعليّ تعمل فيه مختلف الجهات والهيئات على إنقاذ ما تبقى من خطر الاندثار، وتحرص على تواتره في الأجيال، وهذا ما يفتح أمامنا باب إعادة إنتاجه وهو أمر يتطلب خطط ذكية وموضوعية ورصينة تراعي التغيرات الطارئة على واقعنا وثقافتنا لأن موضوع إعادة الإنتاج يضعنا في قلب ميدان دراسة تغير التراث: آليات الاستمرار، واتجاهات هجرة العناصر، وآليات الاستعارة والتبني، وكذلك


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

آليات الرفض والصد والنفور، وعمليات التحوير والتجديد والمواءمة التي تجري على العناصر القديمة، لتطوعها لواقع جديد، أو على عناصر مستوردة لتطوعها لواقع محلي... ولكن عمليات إعادة الإنتاج قد تفرض في بعض الأحيان فرضاً تكييف بعض عناصر التراث المستمدة من عصر مضى لكي تستطيع أن تكسب أرضاً وتعيش في عصر جديد، فهنا يتحتم أو يتعين، أو قد يحسن أن ندخل عليها تغيرات في الشكل لكي تناسب العصر من أجل التكيف ومسايرة الحياة المتغيرة(المصري، 2012، ص14- ص15). ويستوجب ذلك بالدرجة الأولى اتخاذ مواقف بناءة إزاء التراث وبخاصة في إطار النقاش حول مناهج دراسته بدل استسهال الأمور والتهافت على النظريات الغربية، ونعتقد أن ذلك لا يمكن أن يتأتى إلا بتغيير النظرة إلى هذا التراث والتركيز على مواطن فاعليته في معالجة معاناة المجتمعات العربية.

ومن هذه الزاوية فإنه يتطلب الحفاظ على استمرار تواتره النظر إلى التراث من منظور دينامي، فالتراث كيان متغير وغير ثابت (أو جامد)، وله طابع إعادة الإنتاج وإعادة التوظيف بشكل دائم لا يتوقف، ويؤمن كل باحث منصف أن تراثنا يتضمن جوانب دافعة للتغير، كما يتضمن جوانب أخرى معوقة للتغير، وإذا اتفقنا على أن التراث هو المخزون الثقافي المتوارث عبر الأجيال، وأنه يمثل الأرضية المؤثرة في تصورات الناس وسلوكهم، ومن ثم يكون حاملاً للقيم وتجارب الشعوب في التغير، فالتراث- مع قليل من التجاوز- في المجتمعات التقليدية يقوم بدور الإيديولوجيات السياسية في المجتمعات الصناعية المتقدمة، كما يمثل التراث ساحة للصراع الدائر بين قوى التغيير(باسم الحداثة) والقوى المضادة للتغيير(باسم الدفاع عن الموروث) (المصري، 2012، ص17)، وللأسف نشهد لهذا النوع من الصراع الذي لا يخدم لا التراث العربي ولا مستقبل الأجيال في الوطن العربي، إذ يعدّ من المعضلات التي شغلت الدارسين عن البحث الجاد عن سبل التغيير وإرساء قواعد بناء حاضر الثقافة العربية ومستقبلها.

ولا ريب أن بناء هذا الحاضر يبقى رهن تغيير العرب لنظرتهم إلى تراثهم وتجاوز عقدة النقص والهامشية إزاء ما حققته الحضارة الغربية وعبورها لحدود ثقافتهم، والسعي إلى تجسيد مشروعهم الثقافي بالاستناد إلى مقومات هويتهم ومرجعياتها التراثية، واعتبار تراثهم وماضيهم مكمن قوتهم، وحري بهم الاعتداد في ذلك برأي نهرو الثاقب المتضمن في قوله: «إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل وأن نعمل له جاهدين عن قصد يحدونا الإيمان القوي، وأن نحتفظ في الوقت عينه بتراثنا الماضي ماثلاً أمامنا لكي نستمد منه القوة والعزيمة،...، وأن التغير أمر لابد منه؛ ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية، وخير مستقبل هو ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء، أما أن ننكر الماضي وننزع أنفسنا منه فمعناه اقتلاع أنفسنا اقتلاعاً من تربتنا فنخرج منها وقد يبس عودنا، وجف ما فيه من عصارة الحياة الحقة»( الجندي، 2018، ص179) وفي السياق ذاته يرى يوهان هردر أن التراث هو العقل المصحح للعقل والمقوم لمساره، والمنتبه إلى عثراته وأخطائه، والموجه لأبنيته وتأسيساته، لا بل يعتبر "ثقاف" التجربة البشرية، والحقيقة والطريقة، على العكس تماماً من الأنوار التي كانت ترى في التراث العائق في تحرير العقل وتنوير الإنسان(الزين، 2018، ص261)، وبالفعل يمكن القول إن ماهية التراث وتجذره في ذهنية الأمة أمر يجعله قادرا على خلق الوعي وتحديد الرؤى في ما يرتبط بالمشروع المجتمعي الإحيائي.

ويتأسس على ما تقدم أن التراث العربي الإسلامي هو من أهم أسس البناء الحضاري الذي تصبو إليه المجتمعات العربية، ويمثل مكمن قوتها وأقوى عوامل تثبيت حضورها في الصرح الحضاري العالمي، لذا يكون من العبث في نظرنا إغفاله في خطط مواجهة التحديات الصعبة التي تواجهها. ولا يقتصر مداه في هذا الجانب فحسب، وإنما يمثل الذاكرة الجماعية التي يتوجب على هذه المجتمعات زرعها في عقول أبنائها وبحث سبل ربطهم بها حتى لا يجرفهم سيل الانبهار بالتطور الحضاري والثقافي الذي تعرفه المجتمعات الغربية، وحتى يكونوا على ثقة بأن تخليهم عن تراثهم يكلفهم فقدان هويتهم وخصوصيتهم الثقافية، ويؤدي إلى تمييع وجودهم في خضم الصراع الثقافي، وسلطة ثقافات المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً.


Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

**خاتمــة:**

وختاما لما عرضناه في البحث يسعنا القول إن الإنسان يتوق إلى العيش في وفاق مع محيطه، دون أزمات ولا إكراهات تنكد عليه صفو حياته غير أن هذا الحلم بات صعب المنال بالنسبة للفرد في المجتمعات العربية؛ حيثُ إنه ولسوء حظه تكالبت عليه الظروف والأزمات، وخلقت تمزقاً وتشرذماً بين ماضيه وحاضره، وصار يعيش في عالم يفترسه الاغتراب، وحكم عليه بالعيش ضنكاً وفريسة للاستهلاك والقهر الثقافي الذي يهدد تراثه وهويته، والمتأمل في تداعيات واقع هذه المجتمعات الحالي على ثقافته يرى بأنها تقف أمام إشكال عويص، لا بل أزمة هوية انبثقت عن الصدمة الحضارية التي عرفتها، وتستدعي البحث عن حلول من أجل النهوض والاستمرار من خلال تثمين تراثها الذي رغم ما فيه من هنات، فيه من القوة ما يمكن أن يدفعها للتقدم ويحصنها من التماهي في ثقافات غيرها.

وليس هدف هذا البحث إعادة طرح السؤال الفلسفي القائم بين الانتصار للتراث وتبني ما تعرضه المعاصرة، بقدر ما أردنا إثارة فكرة إجراء مساءلة نقدية للتراث العربي الإسلامي نتجاوز فيها التمجيد المفرط والانتقاد المجحف، لنستشف منه طاقة فاعلة نصوب بها الأخطاء ونبتكر من ثناياها حلولاً لقضايا العالم العربي عله يحقق بقوة دعامته إنجازات تضمن له حضورا حضاريا وحصانة ثقافية تبعده عن التبعية.

**قائمة المصادر والمراجع:**


1- أنور الجندي، (1961)، معالم الفكر العربي المعاصر- مع دراسة من الثقافة العربية المعاصرة في معارك التغريب، مطبعة الرسالة، مصر،(د.ط).

2- أنور الجندي، (1987)، معالم تاريخ الإسلام المعاصر، دار الاعتصام، ودار العلوم للطباعة، القاهرة- مصر،(د.ط).

3- خالد عبد الله الكرمي، (2005)، جامع نوادر وأساطير وأمثال العرب- طرائف وأخبار ونوادر وقصص مختارة من كتب التراث ودواوين الشعر والموسوعات الأدبية، منشورات على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1.

4- سعيد المصري، (2012)، إعادة إنتاج التراث الشعبي- كيف يتشبث الفقراء بالحياة في ظل الندرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة- مصر، ط1.

5- عبد الإله بلقزيز، (2010)، نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، ط2.

6- عبد الستار الحلوجي، (2002)، المخطوطات والتراث العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهره- مصر، ط1.

7- عبد السلام محمد هارون، (1988)، قطوف أدبية- دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث، مكتبة السنة، القاهرة- مصر، ط1.

8- عبد العزيز بن عثمان التويجري، (2011)، التراث والهوية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو 1432هـ/ 2011م، ومطبعة الإيسيسكو، الرباط – المغرب.

9- علي حرب، (2005)، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ودار الفارس للنشر، عمان- الأردن، ط1.

10- علي عبد الله الدفاع، (1979)، الموجز في التراث العلمي الإسلامي، دار جون وايلي وأولاده، نيويورك- الولايات المتحدة الأمريكية، (د.ط).

11- عماد الدين خليل، (د.ت)، في الفقه الحضاري: حول منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام، كلية التربية، جامعة الموصل، العراق، (د.ط).

12- فيروز رادوأمير رضائي، (2009)، تطوير الثقافة دارسة اجتماعية في مفهوم التنمية الثقافية عند علي شريعتي، تر: أحمد الموسوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ومكتبة مؤمن قريش، بيروت- لبنان، ط1.

13- قيصر مصطفى، (2018)، الأساطير- الديانات البدائية والتابو والخارقة والمثل، دار الأشرف للكتاب العربي، الجزائر، ومؤسسة الأشرف، بيروت لبنان، (د.ط).

14- محمد شوقي الزين، (يناير 2018)، نقد العقل الثقافي، ج1، منشورات مدارج، الدار البيضاء، المغرب، ط1.

15- محمد عابد الجابري، (يونيو2003)، مواقف النقد الابستمولوجي والاستقلال التاريخي عودة المكبوت وانتقال السلطة في المجتمع والديمقراطية ضرورة قومية، مجلة مواقف، الدار المغربية أديما للنشر والتوزيع، والشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة سبريس- المغرب، الكتاب السادس عشر، ط1.

16- مصطفى جاد، (أبريل، ماي، جوان 2008)، توثيق التراث الشعبي العربي... قضية سياسية، الثقافة الشعبية، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث، البحرين، ع1.

17- منى أبو الفضل وأخرون، (2008)، الحوار مع الغرب آلياته- أهدافه- دوافعه، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط1.

18- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطاع الشؤون الثقافية ومعهد المخطوطات العربية، (2014)، علم المخطوط العربي بحوث ودراسات، الوعي الإسلامي، الكويت، ط1، ع79.

19- يوسف القرضاوي، (2000)، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1.

20- حكيمة بولشعب، (2018)، تحديات الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة، جامعة جيجل، الجزائر، 02-05-2018، على الرابط الالكتروني: http://algerie5.blogspot.com




Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)